الفصل الأول

أوسر

مصر هى للقيم مهدا
ومصر هى للضمير فجرا
ومصر هى للأخلاق نبعا
وإن أمست...
فهى للسكون موطنا وللحب أصلا

أوسر

بالرغم من كونها أسطوره، وبالرغم من كونها مرتبطة ارتباطا وثيقا بمصر فى العصور المصرية القديمة، إلا أننا نجد تشابها كبيرا بين أسطورة «أوسر» و«ست» وبين ما ورد إلينا عن أبناء آدم «قابيل وهابيل»، فهل كانت الأسطورة المصرية هى ما تناقله الأبناء عن الآباء والأجداد، مع تحريفات أو تنويعات قد تكون نتجت نتيجة للترجمة، أو نتجت نتيجة لما للحياة من تأثير وتأثر فى القصة، قد تكون اختلاف الروايات نتجت لما لتوقيت القصة من احتياج للتمثيل التجسيدى، لتقريب الهدف إلى الأذهان، وليصل المعنى المعنوى بصورة أكثر وضوحا، فى عصر تم اعتباره بداية تكوين الجماعات، بداية تكوين العلاقات الاجتماعية، فى عصر يمكن اعتباره بداية تكوين الأخلاقيات، فكان المحسوس أكثر قربا للذهن عن اللامحسوس، فتطلب الأمر أن يكون هناك تمثيل تجسيدى لكل شىء، حتى تصل الرسالة.

كما أن هناك بعض تشابه بين ما دار فى أحداث الأسطورة المصرية مع ما نقل عن أساطير اليونان حول الإله «زيوس» فى أن كلا الأسطورتان تسردان قصصا عن أسرة من الآلهة فى صراع مع بعضها البعض، فإن جاز لنا القول بأن الأسطورة اليونانية مستمدة من الأسطورة المصرية، فإنه يجوز لنا أيضا أن نعتبر كلاهما مستمد من أصل واحد.

ولا أخفى فى نفسى ما أجده تقاربا بين ميلاد «حور» (حورس) وميلاد السيد المسيح عليه السلام، الأمر الذى قد أتفق فيه مع البعض واختلف فيه مع آخرين، ولكلٍ رأىٌ يحترم.

ثم إنه لا مانع من ألا يكون للأسطورة أساسا من الواقع، فقد تكون مجرد أسطورة تم ابتكارها لتُرسى بها مجموعة من المبادئ والقيم عند الشعب المصرى، أو.... عند الشعوب جميعا.

- فمصر هى للقيم مهدا.
- ومصر هى للضمير فجرا.
- ومصر هى للأخلاق نبعا.
- وإن أمست... فهى للسكون موطنا، وللحب أصلا.

والأسطورة المصرية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالدين حيث أنها تدور حول آلهة، وعند المناقشة فيما يخص الأديان فعلينا أن نقبل بالإيمان ونبتعد عن المنطق، أو أن نقبل منطق جديد قد يتوافق مع اللامنطقية البشرية، ولكنه فى نفس الوقت مقبول لدى المنطقية الإلهية، أو على الأقل مقبول لدى المنطقية الأسطورية، قد يكون السرد غير منطقى، إلا إننا لو تخيلنا أنفسنا خارج أجسادنا، تخيلنا أنفسنا فى نوع آخر من الحياة، ونوع آخر من المقدرة والإمكانات التى قد لا تتوفر للجسد، ولكنها تتوفر للأرواح، أو على الأقل تتوفر للخيال، نجد أننا

قادرون على الطيران بل قادرون على التحول من صورة إلى صورة بصورة غير منطقية، ومن حال إلى حال بصورة أكثر بعدا عن المنطقية، ولكننا نتقبل كل هذه الأمور اللامنطقية وبكل بساطه فى أحلامنا، وتقبلها بمثل هذه البساطة، وعدم معارضتها يعنى منطقيتها، لتصبح للأحلام منطقية خاصة.

فى أحلامنا حيث ننفصل عن أجسادنا، ونكون فى حياة غير منطقية واقعيا، حيث لا يتحكم فينا جسد، ولا تحكمنا قوانين، حياه أشبه ما تكون بحياة الأساطير.

من هنا كانت منطقية الأساطير اللامنطقية، اللامنطقية المقبولة منطقيا طالما أننا نسرد أسطورة، أو نسرد ما يشابه الأسطورة، فالحواديت التى بدأت تتلاشى من حياتنا، ما هى إلا نوع من أنواع الأساطير، ومن خلالها نستطيع أن نستوعب لماذا كانت هناك أسطورة، لماذا كانت هناك حكايات تستمر فى الانتقال من جيل إلى جيل، قد يشوبها تطور أو تحور، وفقا لما تقتضيه البيئة، ووفقا لما تتطلبه الظروف، لذا كانت الروايات المختلفة للأسطورة التى قد تبدوا متضاده، ولكنها فى الواقع متوافقة، متوافقة فيما تهدف إليه، فما الأسطورة، إلا وسيلة لغرس قيم معينه، أو الترهيب من أخرى، لغرس قيم الخير، والترهيب من قيم الشر – إن جاز التعبير بأنه قيمة –. الخير والشر، اللذان صاحبا البشرية منذ بزوغها على الأرض، بل صاحبا الخلق قبل وجوده على الأرض، الصراع الأزلى بين الخير والشر، الصراع بين «آدم وإبليس»، الصراع بين

«هابيل وقابيل»، الصراع بين «أوسر وست»، الصراع بين البشر وبعضهم بعضا.

أوسر:

طبقا للنطق المصرى القديم فى اللغة المصرية فإنه «أوسر». ونظرا لتواجد الكثير من اليونانيين فى مصر القديمة فى العصر الحديث، أو عصور الأسرات المتأخرة، الأكثر حداثه نسبيا، فإن اللغة اليونانية قد أثرت وتأثرت فى الكثير وبالكثير من الألفاظ المصرية، ومن المعروف أن معظم الأسماء فى اللغة اليونانية تنتهى بالمقطع «أوس» مثال ما نجده فى «بطليموس»، و«إقلادنيوس» و«فيثاغورس»، كذلك أضيف المقطع إلى اسم «أوسر» ليصبح (أوسريوس)، أو (أوزوريس) حيث أصبح الأخير هو الأكثر شيوعا، ليس بين المصريين ولكن بين من نقل إلينا الأساطير، حيث أن «معظم الكتابات عن مصرنا وتاريخنا، قد كتبت من قبل آخرين»[1].

تطور إسم أوسر

١ عادل خميس، بعث روى، دار ليليت للنشر، ٢٠١٣

وقبل الخوض فى سياق الأسطورة، علينا من التأكيد على نقطة أساسية، وهى أن المصرى القديم عبد إله واحد، ولم يعبد آلهة متعددة، ولكن الخلط فى معنى كلمة إله فى اللغة المصرية القديمة هو ما أدى إلى هذا التداخل عند قارئى التاريخ المصرى القديم، فما تعنيه كلمة إله «نتر» هو أنها حالة تربط بين الإنسان ونفسه، و«النتر» تصاحب الإنسان لإرشاده فى مراحل الوعى المختلفة، فإذا فهمنا هذا ستبدو لنا الديانة المصرية القديمة أكثر وضوحا، فالنتر هنا ما هو إلا الضمير، الذى يستمد منه الإنسان مبادئ الخير ويبتعد بتعاليمه عن مبادئ الشر، ولأن هذه المبادئ مبادئ سامية فهى هبة من الإله، وعليه فيمكن اعتبار أن الضمير هو رسول من الإله، أو هو صورة الإله فى داخلنا، أو هو الإله، وهنا كان الخلط بين الإله والضمير، وفى نفس الوقت فإن هذا الضمير أو «النتر» يصاحب الإنسان عند انتقاله من الحياة الأرضية إلى الحياة السماوية، أو الحياه النجمية[٢]، أو إلى الحياة ما بعد الموت، فضمير الإنسان حى لا يموت، أو أن ضمير الإنسان باق لا يموت، فذكرى الإنسان لن تكون إلا بما ترك من خير، أو شر، وهذه الذكرى الباقية، وهى ما أنتجه هذا الضمير، على أيدى البشر، هى تراث تتوارثه الأجيال، فنمتدح الذكرى الحسنة، ونذم فى الذكرى السيئة، فالذكرى باقية، وبالتالى فالضمير باق، وبالتالى فنحن باقون.... بأعمالنا.

٢ جيرمى نيدلر، معبد الكون.

«ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا»[٣].

فى البدء لم يكن فى الكون سوى الإله الخفى فى العلا، الإله الواحد الأحد «أمون»، خالق الكون، صانع ما كان والذى يكون وما سيكون[٤].

ولأن البداية كانت إلهاً منفردا متوحدا، ولأن مصر هى الكون، وما عداها غريب، فإنه من المنطقى أن ترى الأسطورة أن سكان مصر كانوا آلهة، قبل أن يكون للبشر بها مكان. أو ترى الأسطورة أن الإله الأعظم «أمون» أراد أن يرسى القواعد والأخلاقيات لمن سيكون، لخلقه من المصريين، أو لأحبائه أو لأبنائه، فكانت حياه أشبه ما يكون بحياة البشر، ولكن ليس ببشر، حياه لكائنات يمكن اعتبارها آلهة، ويمكن اعتبارها بشرا.

هدفت الأسطورة من خلال أحداثها لإعداد العدة، ولتمهيد الأرض أخلاقيا للبشر أبناء «أمون» وأحباؤه، ولا ننسى هنا أن نؤكد أن «أمون» يلد (يخلق) ولم يولد (لم يخلقه أحد). ينجب (يهب) ولم ينجبه أحد[٥]. ولكن الأسطورة هدفت إرسال رسائل ودروس للخلق حتى يتمكنوا من تنظيم أمور حياتهم، ولوضع قوانين، ونواميس قد تكون مكتوبة فى بعض الرسالات السماوية

٣ سورة مريم، آية ٧٦.

4 Wallis Budge, *Osiris and the Egyptian Resurrection*, Dover, New York, 1973, vol.1, p. 357.

5 Wallis Budge, *Osiris and the Egyptian Resurrection*, Dover, New York, 1973, vol.1, p. 357.

وفى بعض المعتقدات، أو محسوسة فى بعضها الآخر، وهنا فى الديانة المصرية القديمة أو فى المعتقدات المصرية القديمة، فهى الحس والإيحاء المصحوب بالتمثيل أو التجسيد المعنوى وليس التجسيد المادى[٦].

ولأن «أمون» فى العلا، أو فى السماء، و«أمون» هو الإله الخفى، وهو أسمى من أن يراه بشر، فما كان للأسطورة أن تقحمه فى إنجاب أبناء، بالرغم من وجود أساطير أكثر ارتباطا بالديانة المصرية تتدخل فى كنه «أمون» وكيفية خلقه للحياة، إلا أن أسطورتنا هذه، أسطورة «أوسر وست»، ولما فيها من صراعات، يسموا عنها «آمون»، ولما تهدف إليه من قواعد وقوانين أخلاقيه نرسلها لبشر، فإن «أمون» بعيدا كل البعد عن التداخل، وليس التدخل، فيما يجرى، «أمون» لم يذكر فى الأسطورة بأى حال من الأحوال، ولكن خلق «أمون» فيما يخص البشر كانوا هم أبطال الأسطورة، فإله الأرض «جب» قد تزوج إلهة السماء «نوت»، وكلاهما فى نفس الوقت خلقا من خلق «آمون»، فلم يكن فى الكون أرضا ولا سماءا، ولكن «آمون» فتقهما ليكونا، فهما من خلقه، ولحبه لخلقه جاز التعبير مجازا على أنهما أبناؤه، ولأنهما أبناؤه وهو الإله الأعظم فهم آلهة، وبغض النظر عن مفهوم الألوهية فى الأسطورة، إلا إن ما نراه فى هذه السرد قد يتقارب بصورة ما مع ما نقرأه فى القرآن، فقد قال الله تعالى فى كتابه الكريم «أولم ير الذين كفروا

٦ عادل خميس، بعث روى، دار ليليت، ٢٠١٣

أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون»[٧].

ونظرا لانفصال الأرض عن السماء، أى نظرا لكونهما من أصل واحد، فإنه يجوز التعبير عنهم بأخ وأخت، ونظرا لعدم وجود سواهما فى الكون فقد تزوجا لينجبا الكون، ومن هنا كان الخطأ الشائع فى تزاوج المصرى القديم بأخته، الذى ليس له أى أساس من الصحة، كل ما فى الأمر أن الزوجة كانت تمنح مجموعة من الألقاب منها لقب الأخت، فهى الزوجة والحبيبة والأخت، ولا علاقة لذلك بزواج الأخ من أخته.

تزوج الإله «جب» إله الأرض، أو الأرض نفسها، من الإلهة «نوت» إلاهة السماء أو السماء نفسها، لينجبا، أربعة أبناء، وحيث أن الأب والأم آلهة فالأبناء آلهة، وحيث أنهما أرض وسماء، فأبناؤهم ليسوا بآلهة، وهذا ما نعنيه بمنطق الأسطورة، فما هم بآلهة، ولكنهم آلهة، ونحن نتقبل كلا الأمرين بمنطقية، وبكل بساطه لأنها أسطورة، ولكن إن لم يكونوا آلهة فماذا هم؟ إذن فهو بشر، لذا فإن الأسطورة تتعامل معهم أحيانا بمنطق الآلهة وأحيانا بمنطق البشر، وإذا غلب علينا المنطق البشرى فى تفسير ما يرفضه المنطق البشرى، فقد يصل بنا التفكير إلى أنهم حلقة وصل بين الآلهة والبشر، وقد سمعت هذا القول عن بعض القساوسة، فى أحد كنائس مصر القديمة بالقاهرة، حين فسر لى دور المسيح فى التواصل بين البشر

٧ القرآن الكريم، سورة الأنبياء، آية ٣٠

والإله، فما هو بإله وما هو ببشر، فهو إله لاتصاله بالإله وحتى يتمكن من التواجد بحضرة الإله، وهو بشر ليتمكن من التواصل مع البشر والتواجد بينهم، ولا أعنى هنا مناقشة كنه المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، ولكنى تعمدت أن ألقى الضوء إلى أن ما ورثناه من تراث ثقافى، قد يؤثر فى تفسيراتنا لأمور نتعرض لها فى حياتنا، ولا نجد لها من المنطقية البشرية ما يفسرها، فنحاول أن نقحم أنفسنا فى إيجاد تفسير منطقى، لما وجب أن يأتى بالإيمان لا بالمنطق، هذا؛ بفرض احتياج الإله إلى وسيط للتواصل، أرى أن نكتفى بالإيمان بما نؤمن به، وألا نشوهه بتفسيراتنا المنطقية.

أنجبا «جب» و«نوت» أربعة أبناء، زوجان من التوائم، أنجبا «أوسر ونفتيس» و«ست وإيزا»، ويجدر بنا الإشارة إلى أن الأسطورة هدفت من البداية إلى إرساء قواعد الحق والخير، إرساء المبادئ التى سيعيش عليها البشر فى الأرض، ومن أهم هذه المبادئ إعمار الأرض، الذرية التى ستعمر الأرض، «والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب»[٨]. وقد كان من الممكن أن تدع الأسطورة أمر الزواج جانبا، إلا إنه فى هذه الحالة لكان الإنجاب بغير زواج سنه، وهو ما يرفضه حتى الأنواع الأكثر

٨ القرآن الكريم، سورة هود، آية ٦١

رقيا من الحيوانات، فالأسود كرمز للقوة، والحمائم كرمز للسلام لا تنجب إلا من خلال زواج، «وخلقناكم أزواجا»[٩].

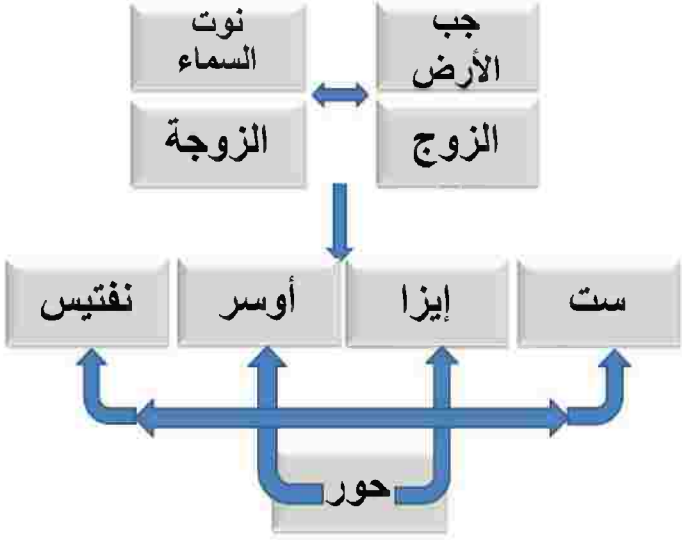

جب ونوت

وتزوج كل ذكر من أنثى، وحتى لا يصبح زواج الأخ من أخته سنه، فقد كان الزواج، ولكن بمحاولة للابتعاد عن زواج الأخ من أخته، ولكن كيف؟ وكلهم أخوه، كان الزواج بحيث أن تزوج «ست» من «نفتيس» شقيقة «أوسر» وتزوج «أوسر» من «إيزا» شقيقة «ست»، ونرى فى الأسطورة مرة ثانية تكرار لما نسمعه عن قصة «قابيل وهابيل».

٩ القرآن الكريم، سورة النبأ، آية ٨

ولم تكن ألوهية كل من الأشقاء الأربعة تعنى أن المصرى عبدهم، ولكن ما يشاع عن عبادة المصريين لهؤلاء الأرباب، هو أمر دخيل على المصرى القديم، ويكفينى هنا التنويه عن لوحة أثرية تعرف بلوحة «الأربعمائة عام»، والتى عُثر عليها فى «صان الحجر» (تانيس) بمحافظة الشرقية، حيث أقام الملك «رع مسيس الثانى» هذه اللوحة تخليداً لزيارة أبيه وجده لهذه المدينة فى وقت من الأوقات. وكان ذلك فى عهد الملك «حور محب» عندما كان الجد أحد قواد الجيش، وكان الأب ضابطاً فيه. وقد تمت هذه الزيارة حوالى عام ١٣٣٠ ق.م، وكان قد مضى على عبادة «ست» فى هذه المدينة أربعمائة عام. وبالرجوع إلى الوراء أربعمائة عام، أى عام ١٧٣٠ ق.م، وهو عام إعلان تتويج الإله «ست» إلهاً للبلاد، نجد أن هذا العام هو نفس عام دخول «الهكسوس» لمصر تقريباً. وهذا دليل قاطع على أن مفهوم عبادة هذه الآلهة لم يكن مصريا وإنما أقحمه عليهم من هو غير مصرى، أقحمه عليهم الهكسوس، ومن قدم لمصر غازيا أو مهاجرا، أو حتى تاجرا[١٠]. ولا يضيرنا أن نستشهد بما

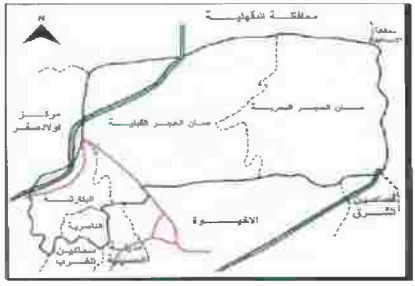

صان الحجر

10 http://www.bibalex.org

قاله «ماسبيرو» بأن المصريين قد توصلوا فى الزمن الأول إلى تصور عن وحدانية الله[١١].

وقبل الصراع بين «ست» و«أوسر»، لم نكن نعلم أيهما يحكم مصر، أكان الحكم لأحدهم منفردا أم كان حكما جماعيا، ولكن ما نعرفه أن مصر كانت تتكون من إثنين وأربعين إقليما، وتعد هذه النقطة نقلة من الأسطورة إلى الواقع، فقد تأثرت الأسطورة والتى يفترض أنها كانت تتكلم عن حياة ما قبل البشرية، إلى حياة البشرية حيث لم يكن فقط قد تواجد البشر، ولكنهم انتشروا وملؤا مصر عمرانا، ووصل الأمر بهم إلى تكوين إثنين وأربعين تجمعا سكانيا، أو إثنين وأربعين إقليما، وأيضا رويت نفس الأسطورة ولكن بعدد ستة عشر إقليما أو أربعة عشر إقليما، وهو ما أعنيه بأن التوقيت الذى كانت تروى فيه الأسطورة كان يؤثر عليها وتؤثر عليه.

ويجدر هنا الإشارة بالذكر إلى أن هذه الأقاليم الإثنين والأربعون والتى تمثل محافظات أو ولايات تدل فيما لا يدعو للشك، بأن مصر شهدت ارتقاءا، فى تنظيم الدولة إلى الحد الذى وصل بها إلى تكوين مدن أو محافظات، فى الوقت الذى كان الكون فيه يعيش على هيئة جماعات بلا نظام، وإن تجمعت فهى غير مرتبطة بغيرها من الجماعات، على خلاف ما هو حادث فى مصر حيث أنه بالرغم من وجود تجمعات إلا

١١ والاس بدج، آلهة المصريين. ترجمة: محمد حسين يونس.

أنه يشملها ككل نظام واحد، وبالتالى فإن كلمة دولة قد انطبقت أولا على مصر، ثم انتقلت إلى باقى دول الكوكب الأرضى.

الإمبراطورية المصرية

وعودة إلى الأسطورة، فقد تميز كل من الإلهين بصفات معينة، فكان «لأوسر» صفة العدل، ولعدله أحبه الناس، وكان «لست» صفة القوة، إلى الحد الذى جعلنا نجد فى بعض البرديات التى تمجد الإله «أوسر» كلمات مثل: الهيكل العظمى «لأوسر» هو الهيكل العظمى «لست»[١٢].

مقتل أوسر:

لا يمكننا أن نفترض وجود عداء متبادل بين «ست» و«أوسر»، فبالرغم من أن «ست» قد قتل «أوسر»، إلا أن القتل لم يكن من خلال صراع متبادل بينهما، فقد أقام «ست» مأدبة دعا فيها واحد وسبعين من أنصاره، ودعا فيها «أوسر»، وبالرغم من تخوف «إيزا» (إيزيس) من مثل هذه الدعوة إلا أن «أوسر» لبى الدعوة، وأثناء المأدبة قدم «ست» للحاضرين تابوتا مرصعا بالذهب، وأعلن أن هذا التابوت سيكون من نصيب الشخص الذى يتطابق جسمه مع التابوت، وقام المدعوون واحد تلو الآخر بتجربة التابوت، إلا أنه لم يوافق مقياس أى منهم، فتقدم «ست» بدعوة «أوسر» لتجربة التابوت، وما أن دخل «أوسر» التابوت، حتى قام «ست» بمعاونة من استضافهم من أعوانه بغلق التابوت، بل وصب الرصاص المنصهر عليه حتى لا يمكن فتحه مرة ثانية، وألقى بالتابوت فى النهر.

١٢ برديـة أنى، المتحـف البريطـانى، نقـلا عـن: آلهـة المصريـين، والاس بـدج، ترجمـة: محمـد حسـين يونـس.

والقصة تدل بما ليس فيه مجال للشك بعدم وجود عداء مسبق بين «أوسر» و«ست» وإلا لما حضر «أوسر» الحفل، وتدل أيضا على أن الصراع لم يكن صراع قوة، وإنما كان خداع من «ست»، الذى اطمأن له «أوسر» ولبى دعوته، وبالرغم من إضافة جزئية تشكك «إيزا» (إيزيس) من مثل تلك الدعوة، فهو لا يدل على وجود عداء مسبق بين الإلهين، وإنما كان التخوف رسالة عن حدث المرأة، وأن المرأة قادرة بذاتها على الارتقاء فوق الماديات، والإحساس الذاتى الداخلى بالأمان، أو الخوف، سواء أكان لهذا سبب مادى أو معنوى أو حتى بلا سبب. أضف إلى هذا جزئية الرصاص المصهور، والذى يدل فى حد ذاته على التقدم العلمى فى بلد الكيمياء، ومعرفة أن ذلك العنصر ذو درجة انصهار منخفضة يمكن الحصول عليها بسهولة، ولكن ما الذى دفع «ست» إلى قتل «أوسر».

أسباب القتل:

لا نريد أن ننسى أننا نتكلم عن أسطورة هدفها الأساسى إرساء قواعد وأخلاقيات، ونظم حياة للبشر على الأرض، وبالتالى فهى تلقى الضوء على مجموعة من الأسباب التى قد تؤدى إلى عداء بين البشر وبعضهم، ومن هنا تعددت أسباب القتل بتعدد الروايات.

الغيرة:

نظرا لأن «أوسر» قد تميز بصفة العدل، فقد أحبه الناس، ونظرا لأن «ست» تميز بصفة القوة فقد هابه الناس، ومن هنا وقعت الغيرة فى قلب «ست» تجاه «أوسر» المحبوب من الخلق، فكان سببا فى التطلع لقتله، فلم تكن الناس تكره «ست»، ولكنها كانت تحب «أوسر»، وبالتالى فالتخلص من «أوسر» يعنى أنه ليس أمام الناس سوى حب «ست».

«لا تمدن عينيك إلي ما متعنا به أزواحا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين»[١٣].

الزوجة:

يقال أن «إيزا» كانت على درجة عالية من الجمال، فقد صورها المصرى على الجدران مرتدية لباسها الأبيض الضيق الذى يظهر مفاتنها، وارتبط جمالها بذكائها، وقدرتها على استخدام السحر (العلم) فى شفاء المرضى، ولشغفها بالعلم فقد تميزت بحب الإله «تحوت» أو الإله «توت»، إله العلم، والسحر والطب، ومازال الإله «تحوت» يمثل رمزا للأطباء حتى وقتنا الحالى، وتمكنت من حفظ التعويذات السحرية التى لم تكن فقط لإتمام العلاج ولكنها تحورت فيما بعد لإمدادها بالقدرة على التحول من هيئه إلى هيئة، على التحول من هيئة الأنثى إلى هيئة الطائر، بل إن الأكثر من ذلك أن الإله

١٣ القرآن الكريم، سورة الحجر، آية ٨٨

«رع» قد أخبرها باسمه الأعظم، نظرا لما رأه منها من اهتمام بالعلم، فى حين أن «نفتيس» لم تكن بهذا الجمال، و«إيزا» (إيزيس) التى هى فى الأصل توأم «ست»، قد تزوجت من «أوسر»، بينما نال «ست» «نفتيس» كزوجه، وهو ما دفعه لأن يحقد على «أوسر»، ويسعى للتخلص منه، حتى تكون «إيزا» له زوجه. ناسيا أو متناسيا أن الأله قد حباه بقوة لم يهبها «لأوسر»، بل أن مدح «أوسر» نفسه قد كان مدحا من خلال وصف هيكله العظمى بهيكل «ست». «ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون»[١٤].

الخيانة:

فى بعض الروايات قيل أن «أوسر» قد بدأ بخيانة «ست»، فقد خرج «ست» لرحلة صيد، ونظرا لتمتع «ست» بالقوة، فقد كانت رحلته ناجحة، ولم يكتف باصطياد التماسيح من النهر، بل تخطاه إلى الصحراء حيث الوحوش، وطالت الرحلة حتى أن «خنسو» (القمر) قد ظهر مكتملا أربع مرات مع «نوت» (السماء)، وفى هذه الفترة كانت «نفتيس» تعيش وحيده، فقام «أوسر» بزيارتها بين الحين والحين، بداية، ليمد لها يد العون، ويأتى لها بالجعة والغذاء، ولما تكررت الزيارات، وطالت مدة غياب الزوج، بدأت تتحول العلاقة بينهما من مجرد علاقة أخ يرعى أخته، إلى علاقة حبيب بمحبوبته، لينتهى الأمر بممارسة الجنس معها. ولا يحق لنا هنا أن نجد مبررا

١٤ القرآن الكريم، سورة الأعراف، آية ١٠

لمثل هذه الخيانة، أو أن نفندها، فالأمر ليس كونه إلا مجموعة من الرسائل أرسلت للبشر من خلال هذه الأسطورة.

«ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وابقى»[١٥].

السلوكيات المتبادلة:

وفى متون الأهرام، وهى من أقدم ما تم العثور عليه من مخطوطات، فقد قيل أن سبب القتل كان سلوك «أوسر» تجاه «ست»، حيث قام «أوسر» بركل «ست»، ولم تذكر المتون تفاصيل عن هذا الركل، هل كان أثناء صراع، أم أثناء رحلة صيد، هل كان من فترة طويلة أم كان حديثا قريبا من حادثة القتل، فلم يكن الهدف الركل فى حد ذاته، ولكن كان الهدف أن السلوكيات قد تؤدى إلى خلافات، وأن على كل منا كبشر أن يراعى سلوكياته بغض النظر عن الحالة التى تم فيها السلوك من صراع أو مداعبه.

«وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ»[١٦].

وتعدد الأسباب لا يقلل من قوة الأسطورة، بل يزيدها قوة، فهى ليست بقصة ذات سرد ثابت، ولا هى بالقصة من الأساس، ولكنها وجدت لتعلم البشر، ومن هنا فأصبح الاختلاف فى

١٥ سورة طه، آية ١٣١.
١٦ سورة لقمان، آية ١٨.

الرويات قوة، حيث تمكنت الأسطورة نفسها من أن تبعث بأكثر من رسالة فى آن واحد، وتعلمنا أكثر من مبدأ نتيجة لهذه التعددية فى الروايات.

وعلى أى الأحوال ففى النهاية، أو يمكننا القول فى البداية، قتل «ست» «أوسر»، وانتصر الشر.

إيزا[١٧]:

إيزا

هى من تمتع بجمال مزدوج، جمال الشكل وجمال العقل، فقد أحبها الشعب المصرى بكل أطيافه، واعتبرت أما ومحبوبة لكل المصريين، فنجد المصرى يتغنى بأنه أصبح زوجا «لإيزا»، ويتغنى بأنه أصبح لها ابنا، وهو شرف يقوله المصرى كشفيع له عند محاسبته بعد موته، وهى لا تمثل جمالا وذكاءا فحسب، بل كانت رمزا لإخلاص الزوجة لزوجها، حيا كان أو ميتا.

تولى «ست» العرش بعد قتله «لأوسر»، ثم توجه إلى «إيزا» ليأخذها كزوجة له، ولكنها تمكنت من الهرب بمساعدة أختها «نفتيس»، وهنا تهمل

١٧ تكتب أحيانا «إيزه»، أما اللفظ «إيزيس» فهو اللفظ اليونانى بعد إضافة المقطع «يس» كعادة الأسماء اليونانية.

الأسطورة أن «نفتيس» بالفعل زوجة «لست»، ولكننا ننظر هنا «لنفتيس» باعتبارها أخت «لإيزا»، وبالتالى فعليها مساعدتها، ونظرا لقدرة «إيزا» العلمية على التحور من شكل إلى شكل فقد تحولت هى «ونفتيس» إلى شكل حداءات تطير فوق النيل، بحثا عن التابوت الذهبى، بحثا عن الزوج «أوسر».

واختيار الحداءات يعد فى حد ذاته دلالة على مدى التقدم العلمى للمصرى القديم فى معرفة سلوك الطيور والحيوانات، فالحدأة معروفة بقوة النظر، والقدرة الفائقة على الطيران لمسافات طويلة، ومن هنا كان اختيارها دلالة على معرفة المصرى القديم لكل تلك الصفات، وهو ما يدعوا إلى الاعتقاد بمعرفته بصفات باقى الطيور والحيوانات الأخرى، وبالتالى فإن هذا يدعو للتوثيق بوجود مؤسسات علمية متخصصة فى البحث وأخرى فى التعليم، أو قد يكون كلاهما مؤسسة واحده.

وبالرغم من أن الرويات تقول أن «أوسر» كان ملكا لمصر السفلى «الدلتا» وأن «ست» ملكا لمصر العليا «الصعيد» إلا أن أحداث الأسطورة تقول أن «إيزا» بدأت الطيران من صعيد مصر لتتبع مسار النيل شمالا، وتمر الأيام وكلا من «إيزا» و«نفتيس» تطيران علوا تارة، وقربا من مياه النيل تارة، إلى أن وصلا إلى منطقة تفرع النيل، إلى أن وصلا إلى منف، عند بداية دلتا النيل، فاحتاروا أى فرع من الفروع السبعة عليهم اتخاذه، والجدير بالذكر أن دلتا النيل كانت تتكون من سبعة فروع ثلاثة منها شرقى دمياط الحالية، واثنان وسط الدلتا بين

دمياط ورشيد، إضافة إلى الفرعان الباقيان حتى الآن فرعى رشيد ودمياط.

أفرع النيل

ازداد حزن «إيزا» على «أوسر»، ولكن شده حزنها لم يمنعها من فعل الخير، فقد وجدت صبى يبكى على ضفاف النيل، فتحولت إلى الهيئة الآدمية مرة ثانية، لترى ما يمكنها أن تساعد به ذلك الصبى، وسألته عن سر بكاؤه، فأخبرها بأنه رأى تابوتا ذهبيا طافيا على صفحة النهر، وإنه كان يرغب فى أن يحصل عليه، إلا أن التيار أخذه فى فرع النيل الشرقى ناحية البحر.

وبعد مكافأة الصبى على مساعدته، اتبعت «إيزا» مسار النهر حتى وصلت إلى البحر، ولكن، فى أى اتجاه تقاذفته الأمواج، على شاطئ البحر قابلت الإله «بس»، ولا أدرى ما

الذى أقحم الإله «بس» فى الأسطورة، فهو يمثل قزم أو قرد كان «بس» يعبد كإله الرقص والموسيقى وكل أنواع الملذات، وعبد أيضا كحامى الأطفال والنساء الحوامل وباعد الكوابيس عن الناس وحامى كل شىء جيد وعدو الأرواح الشريرة والثعابين وكل شىء سيئ، كما عبد كإله التجميل حيث وجدت صورته على صناديق مستحضرات التجميل. وفى الدولة الحديثة كانت توضع صورة «بِس» كوشم على أفخاذ الراقصات والموسيقيات والخادمات. على كل الأحوال فإن الإله «بس» قد أخبر «إيزا» بأن التابوت تقاذفته الأمواج حتى وصل إلى جبيل، وجبيل هى مدينة لبنانية فى محافظة جبل لبنان. تعد من أقدم المدن المسكونة فى العالم تقع على بعد ٣٧ كيلومتر إلى الشمال من بيروت على البحر الأبيض المتوسط وتعتبر من أشهر المواقع الأثرية فى المنطقة ومن أقدم المدن فى العالم.

طارت «إيزا» إلى جبيل حيث كان التابوت قد تقاذفته الأمواج ليستقر على الشاطئ فى جبيل بجوار شجرة من أشجار الحور، التى نما جزعها ليلتف حول التابوت، ولم ينتهى الأمر إلى هذا الحد، فقد جاء ملك بيبلوس وقطع الشجرة ليضعها عنده فى البهو وهى الآن تحمل سقف فى قصر ملك بيبلوس.

وصلت «إيزا» إلى جبيل لتجد أن ملك بيبلوس فى رحلة صيد، وكل الحاشية فى حالة حزن شديد مشاركة للملكة حزنا على ابنها المريض. «إيزا» التى تلقت العلم من «تحوت»، لم تفوت الفرصة فى علاج الصبى، ولم تمض أيام ثلاثة حتى

كان الطفل يجرى فى أنحاء القصر، وبقيت «إيزا» فى ضيافة الملكة، وعندما عاد الملك من رحلته، روت له الملكة الكثير والكثير عن أفعال «إيزا» الطيبة وأوضحت له أن «إيزا» هى إله مصرية وأنها يجب أن تلقى التكريم اللائق بها وتمضى إلى حال سبيلها.

وتعجب الملك من الأمر فكيف يمكن أن يكرم إلهه من الآلهة أو ربة من الربات، ذهب الملك إلى «إيزا»، وقال لها أنه يشكرها لتشريفها لهم، واهتمامها بالطفل الصغير، وسألها إن تحدد هديتها قبل رجوعها إلى مصر، طمأنته «إيزا» على زوجته وابنه، وأخبرته أن ميعاد رحيلها قد دنى وأنها تطلب منه منة لا تنسى، فقد طلبت الدعامة الموجودة فى البهو الكبير.

لم يكن الملك يتوقع منها هذا الطلب. لكنه لم يكن ليرفض لها أى طلب مهما كان. انقضى النهار بطوله والعمال فى جد يقومون بخلع الدعامة و«إيزا» تقف فى انتظار بكل الشوق والحب تتابع الموقف فى ترقب شديد فقد طال الانتظار لرؤية «أوسر»، وبعد أن أتم العمال انتزاع الشجرة من مكانها قامت «إيزا» بشق اللحاء فظهر التابوت وبعد القيام بكل مراسم التقديس والإجلال حمل العمال التابوت فوق القارب الذى ستبحر به «إيزا» وهكذا انتهت رحلة «إيزا» بعد طول عناء بأن وجدت زوجها، فقد كافأها الإله وأعاد إليها زوجها.

عودة التابوت:

عاد القارب بكل من «إيزا» والتابوت المحتوى على جثة «أوسر»، والعودة هنا لمصر، بالرغم من وجود «ست» فيها، إلا أنه لا بد من العودة، لا بد من العودة لكل مصرى، وهو ما نراه حتى يومنا الحالى، فالعديد منا يخرج من مصر لسبب

أو لأخر، ولكن المصرى يعود، من ورث حب مصر يعود، فهى مصر.

- مصر التى نبعد عنها فنموت، وتبقى أجسادنا متحركة.
- مصر هى روح، ما لمست جسدا إلا أعطته رحيقها، أعطته حياة خاصة، لا يشعر بها إلا من أحبها[١٨].

عادت «إيزا» ومعها تابوت زوجها، لتختفى فى «الخيميس» أحراش الدلتا، هربا من بطش «ست»، وتمكث «إيزا» عاكفة على تنمية سحرها (علمها) بالاستعانة بالإله «تحوت» إله العلم، حتى تتمكن من استعادة حياة «أوسر»، ولجدها واجتهادها مَّن عليها «رع» بمعرفة اسمه الأعظم، الذى يلبى به أى طلب يطلب منه، والملاحظ أن الأله «رع» ذكر هنا لأول مرة فى الأسطورة، وأعتقد إن هذه الجزئية من الأسطورة قد أضيفت إليها حديثا، كما إننا نجدها تتقارب بين هذه الجزئية وبعض المعتقدات الإسلامية، من أن الله تعالى له اسم أعظم ما دعا به داع إلا واستجابت دعوته.

وطبقا للأسطورة، فقد تم تفادى عودة «أوسر» للحياه بصورة واضحه، وذلك لاعتقاد المصرى القديم بأن الحياة فى الدنيا حياة واحدة، وعودته للحياة لن تكون إلا فى الحياة الآخرة، وبالرغم من وجود بعض الروايات التى نصت فيها الأسطورة على أن «أوسر» عاد للحياة الدنيا ومكث فيها

١٨ عادل خميس، بعث روى، دار ليليت، ٢٠١٣

عامين، وأنجبت خلالهما «إيزا» ابنهما «حور»، الذى علمه أبوه «أوسر» الصيد، قبل أن يجدهم الإله «ست»، إلا أن هذه الرواية قليلا ما تستخدم، ولكن الأكثر شيوعا أن «ست» تمكن من العثور على «إيزا» والتابوت، قبل أن يعود «أوسر» إلى الحياة، وتمكن «ست» من سرقة التابوت مرة ثانية.

وللمرة الثانية فى نفس الأسطورة، ينتصر الشر على الخير.

كيف لـ«ست» أن يتفادى سحر (علم) «إيزا»، فقد تمكنت من العثور على التابوت، وتمكنت من إعادته، وكلما حاول «ست» أن يأخذ «إيزا» وبالرغم من قوته إلا أنه فى كل مرة لم يتمكن أن يمسك بها، فهى فى كل مرة تختفى من أمامه، بتحولها إلى طائر، يطير مبتعدا، هربا من بطشه.

الشر يولد مزيدا من الشر:

ألا من حل لمثل تلك المشكلة؟ إن أخفى «ست» تابوت «أوسر» فى أى مكان ستتمكن «إيزا» من إيجاده، وقد منحها الإله «تحوت» العلم، فقد تتمكن من إعادته إلى الحياة مرة أخرى، وهذا ما لم ولن يسمح به «ست»، إذا فلا مناص من التطاول، التطاول على ما هو مقدس، التطاول على الجسد.

إن للجسد، وخصوصا جسد المتوفى مكانة خاصة لدى المصرى القديم، وقد تكون هذه المكانة ليست لدى المصرى

القديم فحسب، بل هى لدى البشر بصفة عامة، فنجد كلمات مثل «إن للموت حرمة»، و«إكرام الميت دفنه»، كلها كلمات إن دلت فهى تدل على مدى احترام جسد المتوفى، وما سمعنا فى أى مكان فى العالم عن أحدا يتطاول على جسد المتوفى، حتى وإن كانت طقوس الدفن تختلف من ثقافة إلى أخرى، ومن عقيدة إلى أخرى، إلا أن الكل يكن الاحترام لجسد المتوفى، وإن كان بحرقه.

وبالنسبة للمصرى القديم، فقد كان احترام جسد المتوفى نابعا من فكرة البعث، فلإيمان المصرى القديم واقتناعه التام بالبعث، سعى إلى تحنيط جثث موتاه، حتى يعود إلى الحياة الآخرة كاملا متكاملا، ليس بروحه فقط، بل بجسده أيضا، حنط موتاه، بالعديد من اللفائف، بل وزاد عليها العديد من المواد الحافظة، التى قد خفيت على علمنا الحديث حتى الآن، لم يكتف بهذا بل سعى لحفظ الجثة من خلال إضافة العديد من التعويذات السحرية، وكثير من الكلمات، لما كان عند المصرى القديم من أعتقاد تام بأن للكلمة قوة، لم يقف الأمر إلى هذا الحد بل زين أجساد موتاه بالعديد من الرقائق الذهبية، ودرس طبيعة الجسد ليجد أن هناك مما هو فى داخل الجسد قد يفسد، فابتكر الأوانى الكانوبية ليحتفظ فى كل واحد من تلك الأوانى الأربعة بعضو من الأعضاء الهامة فى جسم الإنسان، الرئتان، الكبد، المعدة، والأمعاء، وقد ارتبطت الأوانى الكانوبية بأبناء «حور» (حورس)، حيث استخدم كل من هؤلاء

الأبناء الأربعة لحماية واحدا من تلك الأعضاء الهامة لجسم الإنسان، فالرئتان وضعت فى إناء يمثل الإله حبى ويتمثل برأس قرد، والكبد وضع فى إناء يمثل الإله «إمستى» برأس إنسان، والمعدة وضعت فى إناء يمثل الإله «دواموتف» برأس إبن أوى، والأمعاء وضعت فى إناء يمثل الإله «قبحسنوف» برأس صقر.

نعم كانت أجساد الموتى مقدسه، إلا أن الشر يولد شرا، والشر الذى كان يمثله «ست» لم يكن لينتهى عند حد قتل «أوسر»، فقتله لن يكفى، ولكن تطاول «ست» ليمس الجسد المتوفى، فقام «ست» بتقطيع جسد «أوسر» ووزع تلك القطع على أقاليم مصر كلها، معتقدا أن «إيزا» لن تتمكن من استعادته، وإن تمكنت من استعادة جزء فلن تتمكن من استعادة الباقى، إثنين وأربعين قطعه كل قطعة بإقليم من أقاليم مصر.

إخلاص الزوجة:

إن كانت «إيزا» قد بحثت عن جسد زوجها داخل التابوت إخلاصا، فإن بحثها عن قطع الجسد المنتشرة فى ربوع مصر هو قمة الإخلاص التى تطالبنا به الأسطورة، طافت «إيزا» كل ربوع مصر بحثا عن القطع الإثنا وأربعون، طافت أقاليم مصر كلها لتجد فى كل إقليم قطعه، ومن خلال عضو التذكير «لأوسر»، يتم إنجاب «حور»، الإله «حور» إبن «إيزا» و«أوسر».

ومازال الشر منتصرا.

ولكن، هل إلى الأبد؟